

السنة الأولى ليسانس (أدب عربي)

مادة: النص الأدبي القديم

السداسي الثاني (نثر)

المحاضرة رقم 09

المجموعة "أ" + المجموعة "ب"

الأستاذ عبد القادر شريف حسني بالتنسيق مع الأستاذ إبراهيم بوشريحة

محاضرة الرسائل السياسية

الرسائل السياسية:

تعد الرسائل السياسية أحد موضوعات الرسائل الديوانية، باعتبارها تتعلق بشؤون الدولة الداخلية، والخارجية، بل وكانت على رأس الرسائل الديوانية، ولهذا سنفرد لها محاضرة خاصة.

تعتبر الرسائل السياسية من أهم وسائل التواصل بين الملوك والحكام، وهي ليست حديثة النشأة ولا قريبة الاستعمال، وإنما عرفتها الأمم منذ القدم، إذ كانت على شكل رسائل إشارية، ورسائل شفوية، تنتقل إلى رسائل تدوينية سالكة بذلك طريق النشوء والارتقاء، وخاصة مع ظهور الكتابة، وتطور أدواتها، أو قل مع العصور الإسلامية، أين شهدت قوتها مع العصر العباسي باعتباره عصر التدوين، كما أن الاهتمام بالرسائل أصبح ضرورة ملحة لا يمكن الاستغناء عنها، لعدة أسباب منها:

1- أنها الطريق الأنجع - في تلك الفترة - للتواصل.

2- وأن اتساع رقعة الدولة الإسلامية اقتضى التعامل بهذه الرسائل التي تسجل المعاهدات والاتفاقيات.

3- أنها نظمت شؤون الدولة الداخلية والخارجية.

وانطلاقاً من هنا، فإن الرسائل السياسية هي تلك الرسائل التي تهتم بالشؤون الإدارية للدولة، أو هي تلك الرسائل ذات الطابع الرسمي، وقد دُعيت بالسلطانيات، ونظراً لأهميتها فقد انفردت بديوان خاص⁽¹⁾، يسمى ديوان الرسائل، وتدور موضوعات الرسائل السياسية حول شؤون الدولة، وعلاقاتها مع غيرها من الدول، كما تهتم بشؤون الرعية، وقد اتسعت الموضوعات السياسية التي عاجلتها هذه الرسائل، فهناك المخاطبات الإعلامية المتمثلة في المبيعات والمنشورات والبشارات والتوقيعات، وهناك الرسائل التي عاجلت

¹ - ينظر حسين بيوض، الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول، منشورات وزارة الثقافة، سورية، 1996، ص: 5.

الصراعات والفتن الداخلية، وهناك الرسائل التي عبّرت عن العلاقات الخارجية⁽¹⁾، وهو ما قدّمه لنا الدكتور محمد الدروبي في كتابه "الرسائل الفنية في العصر العباسي" من خلال تركيزه على العصر العباسي الأول، وبدايات العصر العباسي الثاني، ويمكن لنا أن نشير إلى ذلك من الناحية النظرية، إيماناً منا أنه قد احتوى جل أشكال هذا اللون من الرسائل، ومن ذلك ما يلي:

أولاً: المخاطبات الإعلامية:

قدمت الرسائل السياسية في العصور الإسلامية دوراً إعلامياً مهماً، من أجل المحافظة على التواصل بين الدول، وقد دفع ذلك إلى اتخاذ صور من المخاطبات الإعلامية للوصول إلى أبعد المسافات بعد اتساع رقعة الدولة، وقد "كان الخلفاء أو الولاة أو العمال -قبل ذلك- إذا أرادوا أن يبلغوا المسلمين شيئاً قالوه في خطبهم في أوقات الصلاة"⁽²⁾، وما إن اتسعت الفتوح حتى بدؤوا بكتابة الرسائل والتركيز عليها، إذ لم يكن لهذه الرسائل خصائص أدبية تميزها، فقد كانت الرسالة عبارة عن خطبة مدونة، أو كانت كلاماً عادياً قيّد بالحروف من غير تنميق⁽³⁾، إلا أنها كانت من أجدى الطرائق الإعلامية التي تلجأ إليها الدولة للتواصل مع رعاياها⁽⁴⁾، في المناطق البعيدة، وقد تلونت صور هذه المخاطبات الإعلامية بتلون المادة الإعلامية التي ترغب الدولة في إذاعتها إلى الناس، ومنه فإن الحديث في هذا السياق يتشعب إلى ست شعب متباينة، تمثل كل واحدة منها صورة من صور المخاطبات الإعلامية⁽⁵⁾، وسنكتفي بذكر هذه الصور دون شرحها⁽⁶⁾، نظراً لحجم المادة:

- 1- المنشورات.
- 2- المبايعات.
- 3- المخالعات.
- 4- الأمانات.
- 5- البشارات.
- 6- التوقيعات.

¹ - رائد حسين حسن النبتيتي، الرسائل الديوانية في عصر هارون الرشيد، ماجستير، الجامعة الأردنية، 1998، ص: 25.

² - عمر فروخ، الرسائل والمقامات، منشورات مكتبة منيمه، بيروت، ط2، 1950، ص: 6.

³ - المرجع نفسه، ص: 6.

⁴ - ينظر محمد الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دكتوراه، الجامعة الأردنية، 1996، ص: 10.

⁵ - ينظر المرجع نفسه، ص: 10.

⁶ - ينظر تفصيل ذلك في المرجع نفسه، ص: 10 وما بعدها.

ثانيا: التنظيمات الإدارية:

اشتدت حاجة الدولة إلى مزيد من العناية الفعلية في سبيل إصلاح النظم الإدارية، والعمل على تطويرها، والحق أن ابن المقفع كان ممن وضع يده على طرف مهم من أطراف الخلل الإداري، إذ فتحت رؤيته هذه عين الدولة على سلبيات النظام الإداري، ومن هنا كانت بداية توجه الدولة العباسية إلى ضرورة معالجة الوضع الإداري، وكان من نتائج هذه العناية أن أخذت الرسائل تعالج جوانب مهمة من التنظيمات الإدارية، وكان هذا الاتجاه إيذانا بنماء ما يمكن أن نصطلح على تسميته بالأدب الإداري، الذي استوعب ما يمكن استيعابه من المضامين الإدارية التنظيمية، والتعبير عنها أدبيا مناسبا، وعلى ضوء ما وصل إلينا من نصوص، نسعى إلى ذكر بعض مناحي التنظيم الإداري⁽¹⁾ في الدولة العباسية⁽²⁾، ومن ذلك نذكر ما يلي:

- 1- القضاء.
- 2- العطاء.
- 3- الخراج.
- 4- التعيين.
- 5- العزل.
- 6- التكليف⁽³⁾.

ثالثا: الصراعات الداخلية والخارجية⁽⁴⁾:

إن ما يمكن أن نقدمه في هذا العنصر هو التركيز على الدولة العباسية نظرا لطول المدة التي قضتها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كثرة الصراعات التي دارت بين العباسيين ومعارضيه، وهذه المعارضات هي أول أشكال الصراع الداخلي، وأن هذه الثورات التي نتحدث عنها لا تمثل عنصر الصراعات الداخلية في حياة الأمم، وإنما تقتصر على الحياة العباسية دون غيرها، ومن تلك الثورات، صراع الدولة العباسية مع الأمويين، والعلويين، والخوارج، والزنج، وغيرهم.

¹ - ينظر محمد الدروي، الرسائل الفنية في العصر العباسي صص: 90، 91.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 91، وما بعدها.

³ - يختلف التكليف عن التعيين من حيث كونه يختص بمعالجة قضية محددة، وهو يشبه من هذه الجهة أن يكون مهمة سياسية أو إدارية آنية، سرعان ما تنتهي بانتهاء التكليف. ينظر المرجع نفسه، ص: 124.

⁴ - ينظر المرجع، ص: 131.

كما سعت الدولة العباسية منذ البداية إلى إنشاء شبكة واسعة من العلاقات الخارجية مع الأطراف المحيطة، والبعيدة، ومن ذلك بلاد الروم والصقالبة والهنود والصينيين⁽¹⁾، وغيرهم.

أما عن علاقة الرسائل بهذه الثورات الداخلية والخارجية، فإنها لم تكن بمعزل عن هذا المنحى من مناحي الحياة السياسية، بل كانت فاعلة في تسجيل ملابسات النزاع⁽²⁾ القائم آنذاك بين الدولة العباسية، وغيرها من الأحزاب السياسية المعارضة، فقد لعبت هذه الرسائل دورا بارزا في تبليغ الصورة الشائنة (الحربية والسلمية) للعلاقات الداخلية والخارجية في هذا العصر، ولهذا فلن نركز على ذكر كل الرسائل التي تحدثت عن ثورات العباسيين، بل سنكتفي بذكر الرسالة التي ردّ فيها المعتصم على ملك الروم، لأن هذا الأمر لا يشغلنا، بقدر ما يشغلنا الاهتمام بالتركيز على رصد الظواهر اللغوية، وما قدمه فن الرسائل في الحياة السياسية لهذا العصر، وهذا لسبب واحد، هو أن تطور فن الرسائل صاحب قوة الدولة العباسية. أما رد المعتصم على ملك الروم فقد جاء كالآتي:

كتب ملك الروم إلى المعتصم كتابا يتهدده فيه ويتوعده، فأمر بجوابه، فلما قرئت الأجوبة عليه لم يرّضها، وقال لأحد الكتاب اكتب، وأملى عليه:

"بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار"⁽³⁾

وهو الرد نفسه الذي ردّ به هارون الرشيد قبل المعتصم على ملك الروم "نقفور"، يقول فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم... من هارون الرشيد إلى كلب الروم.
قد قرأت كتابك، والجواب ما تراه لا ما تسمعه"⁽⁴⁾.

واعتمد يوسف بن تاشفين في الرد على الأذفنش الخطاب نفسه، حين أرسل هذا الأخير رسالة يتهدد فيها ابن تاشفين، فأمر "يوسف بن تاشفين، أن يكتب إليه على ظهر كتابه:

"جوابك يا أذفنش ما تراه لا ما تسمعه، إن شاء الله، وأردف الكتاب بيت أبي الطيب المتنبي:

¹ - ينظر محمد الدروي، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص: 186.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 133.

³ - صفوت أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ج4، المطبعة الأميرية، رقم الكتاب 1176، تاريخ الإضافة: 2008، ص: 8.

⁴ - أحمد أمين، هارون الرشيد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2014، ص: 100.

ولا كتب إلا المشرفية عنده ولا رُسُلٌ إلا الخميسُ العَرْمَرُمُ^(١)

أما في الأندلس فقد أطلقوا لفظ رسالة - أحياناً - على القصائد والمقطوعات الشعرية التي ينظمها الشاعر على شكل خطاب موجه إلى صديق أو غير، في أي موضوع، وقد تضمنت بعض النصوص الشعرية في طياتها بعض الإشارات الصريحة إلى إطلاق لفظ رسالة أحياناً على القصائد التي يبعث بها الشعراء إلى غيرهم، ومن ذلك ما نجده في إحدى قصائد "ابن زيدون" التي وجهها من السجن إلى أبي الحزم بن جهور، يقول فيها^(٢):

ثوى صافناً في مربط الهون يشتكي بتصهاله ما ناله من أذى الشكّل
أفي العدل أن وافتك تترى رسائلني فلم تترك وضعاً لها في يدي عدل

هذا وقد أجاد كتاب الأندلس في الشعر إجادتهم في النشر، وهناك من يرى أن رسائلهم أقرب إلى الفنون الشعرية منها إلى النثرية. كما نجد أن لفظ "كتاب" عندهم يرادف لفظ رسالة، ومن ذلك ما كتبه "الوليد بن عبد الرحمن" إلى الوزير الأسير "هاشم بن عبد العزيز"، يقول له فيها:

"ورد كتابك يا سيدي، فسكن من حرق بك، وأطفأ من علتني فيك، وهذا من عويلي عليك..."^(٣)

وقد شاع استعمال لفظ "كتاب" حتى صار مرادفاً للفظ رسالة، وموازيا له في المعنى والدلالة^(٤)، ومن الألفاظ الواردة والمرادفة للفظ رسالة، نجد كذلك لفظ "صحيفة"، إذ كان يراد به أحياناً ما يراد به لفظ كتاب، ويظهر ذلك من الرسالة التي أرسلها "ابن برد الأكبر" - نيابة عن المستعين - إلى جماعة العبيد^(٥)، يقول فيها:

¹ - المشرفية: ساحة القتال. الخميس: الخميس: الجيش الجرار؛ سمي بذلك لأنه خميس فِرَق: المقدّم، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساقة. العرمرم: نقول جيش عرمرم: جيش كثير العدد. ينظر مؤلف أندلسي من القرن الثامن الهجري (مجهول)، (وقيل للسان الدين بن الخطيب)، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1979، ص: 43.

² - ينظر أبو الوليد الحميري، إسماعيل بن عامر، البديع في وصف الربيع، تص: هنري بيرس، المطبعة الاقتصادية، الرباط، المغرب، 1940، ص: 28.

³ - ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف بن حسين القرطبي، المقتبس، المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط، مدريد، 1979، ص: 389. نقلاً عن فايذة عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ماجستير، الجامعة الأردنية، الأردن، 1986، ص: 43.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 43.

⁵ - ينظر المرجع نفسه، ص: 44.

"زعم كاتب صحيفتكم أنه ما دامت خلافة سلفنا إلا بطبقتكم ولا عزّت إلا بدعوتكم وهذا قول من لا علم له، لم تظهر طبقتكم إلا حديثا، ولا أكثر عدداً إلا قريبا"^(١).

ومن الرسائل السياسية التي عرفت في الأندلس، رسائل الاستنجد بين المسلمين التي كان يبعث بها ملوك الطوائف إلى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، يطلبون منه العون والمساعدة في رد الخطر الداهم الذي أصبح يهدد الوجود الإسلامي في الأندلس، من قبل الصليبيين، ومن ذلك ما وصف به "ابن عباد" حال الأندلس، ويأس ملوكها وأهلها من التصدي "للأذفنش" في رسالة لابنه وولي عهده "الرشيد أبي الحسن عبيد الله" يستشيريه في طلب العون من "يوسف بن تاشفين"، يقول فيها:

"إنا في هذه الأندلس بين بحر مظلم وعدو مجرم، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله، وإنا لإخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس لنا فيها فقه، ولا يرجى منهم نصر ولا حيلة، وهذا اللعين "أذفنش" قد رفع رأسه إلينا، وإن نزل علينا بكلّك ما يقع حتى يأخذ أشبيلية، ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذه الصحراوي وملك العدو، نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين، إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا"^(٢)

ثم بعث "ابن عباد" برسالة إلى "يوسف بن تاشفين"، هذا بعض نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.
إلى حضرة الإمام، أمير المسلمين، وناصر الدين، محيي دعوة الخليفة، الإمام أمير المسلمين، أبي يعقوب بن تاشفين.

من القائم بعظيم أكرامها (...) محمد بن عباد.

... إنا نحن العرب في هذه الأندلس، قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا، بقطع المادة عنا من معيننا، فصرنا شعوبا لا قبائل، وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر، فقلّ ناصرنا، وكثر شامتنا، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفنش، وأناخ علينا بكلّك، ووطئنا بقدمه، وأسر المسلمين (...) وأنت أيّدك الله ملك المغرب ... ومليكتها الأكبر... نزعت بهمتي إليك، واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بجرمك، لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر، وتحبوا شريعة الإسلام... ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم، والأجر الجسيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والسلام الكريم على حضرتكم السامية، ورحمة الله تعالى وبركاته."^(٣)

¹ - ابن بسام الشنتري، أبو الحسن علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997، ص: 112.

² - مؤلف أندلسي من القرن الثامن الهجري (مجهول)، (وقيل للسان الدين بن الخطيب)، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1979، ص: 44.

³ - المرجع نفسه، صص: 45، 46.

وعلى كل حال فالرسالة هي لون من ألوان النثر الفني الجميل، وضرب من ضروبه التي تنهال على القريحة انخيالا، ولا يكاد يختلف مفهوم الرسالة الفنية عند الأندلسيين عن مفهومها عند المشاركة، فالأدب عندهم جميعا ينقسم إلى منظوم، ومنثور، ومن المنشور الرسائل¹.

المصادر والمراجع:

- 1- ابن بسام الشنتري، أبو الحسن علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997.
- 2- ابن حيان، أبو مروان بن خلف بن حسين القرطبي، المقتبس، المعهد الإسباني العربي، كلية الآداب بالرباط، مدريد، 1979.
- 3- أبو الوليد الحميري، إسماعيل بن عامر، البديع في وصف الربيع، تص: هنري بيرس، المطبعة الاقتصادية، الرباط، المغرب، 1940.
- 4- أحمد أمين، هارون الرشيد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2014.
- 5- حسين بيوض، الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول، منشورات وزارة الثقافة، سورية، 1996.
- 6- رائد حسين حسن النبتيتي، الرسائل الديوانية في عصر هارون الرشيد، ماجستير، الجامعة الأردنية، 1998.
- 7- صفوت أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب، ج4، المطبعة الأميرية، رقم الكتاب 1176، تاريخ الإضافة: 2008.
- 8- عمر فروخ، الرسائل والمقامات، منشورات مكتبة منيمه، بيروت، ط2، 1950.
- 9- فايزة عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ماجستير، الجامعة الأردنية، الأردن، 1986.
- 10- محمد الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دكتوراه، الجامعة الأردنية، 1996.
- 11- مؤلف أندلسي من القرن الثامن الهجري (مجهول)، (وقيل للسان الدين بن الخطيب)، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1979.

¹ - ينظر فايزة عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص: 45.